الادب السورى

وأثره فى النهضة المصرية الاخيرة

بحث نقـــدى برى،

القومية المصرية والقومية السورية ـــ تقدم النهضة فى سوريا ـــ مميزاتها نهضة مصر المتأخرة تنسخ نهضة سوريا ـــ الخلاصة .

للاديب الناقد المفكر الاستاذ البحراوى

قد لاتؤدى كلمة « قومية » هذا المعنى الذى نود أن نطبعه فى ذهن القارىء ، فاننا نقصد منها الغاية ، أو بعبارة أوضح الشخصية الادبية .

ونريد أن نقول إن المصريين شخصية أدبية تبقى صبغتها تحول بين الاندماج الكلي والفناء فى أية قومية أدبية أخرى ، بعكس اخواننا السوريين فسرعان مايندمجون ويفنون مدلولهم الاصيل ! وهم مع ذلك لن يملأوا هذه القومية الجديدة ـــ التى تخلق لهم ـــ ويسيرون بين الشخصيتين كالغراب الذى أراد أن يقلد الطاووس !

ولم نر ـــ ولا نحسب القارىء رأى ـــ سوريا يتقن فنا من الفنون أو حتى لغة من اللغات اتقانا حسنا اللهم الا نادرا . فهو يعرف من كل مسألة طرفا بروح تجمية تجارية ولكنه لن يلم باحداها الماما تاما !

ولعل هذا هو السر فى التباين الشاذ الذى تراه فى الادب السورى . فأنت تلقاه فى سوريا ساذج التفكير واضح البساطة ، وأنت تقرؤه فى مصر هادئا ممتدا ، وأنت تنظر فى أمريكا خيالا متفلتا يتب وثوب مجنون !

وكادت النهضة تقوم فى مصر بالحملة الفرنسية قبل قيامها فى سوريا لولا أن اخفقت الحملة مظهرا سياسيا عالميا طغى على ناصيتها الادبية ، ولو لاتعصب (عباس الاول ورجعيته ، وعبث (سعيد باشا) وعدم عنايته ، ثم لولا الظروف المالية السيئة التى أحاقت (باسماعيل باشا) لكانت النهضة فى مصر هاديا ومرشدا لسوريا أولا وأخيرا !

ولم يكن لاخواننا السوريين أي فضل في تقدم النهضة عندهم وإنما يرجع ذلك كله الى جماعات المبشرين ومدارس الارساليات الدينية التي أنشئت في سوريا إذ ذاك .

وقد قلنا إن قومية السوريين — نعني شخصيتهم الأدبية طبعا — مرنة تتأثر بما يلابسها وتحاول أن تندمج فيه ، وهي لا توفق في أكثر الاحيان ، يدلك على ذلك الاختلاف الواضح في التفكير والاسلوب وحتى في الموضوعات التي يتناولها السوريون في كل من سوريا ومصر وأمريكا .

ففي الأولى — مثلا — تتجلى لك صفات الادب السوري الاصيلة وهي النعومة أو الطراوة بل الاسترخاء — وعذرا إن لم نجد كلمة أخرى تحمل الى القارىء المعنى الذي نقصده في دقة وتحديد — نقصد الطراوة التي تكاد تسمى أنوثة ، ولين الاسلوب ، وسذاجة التفكير وإسفافه أحيانا ، وهي صفات تلازم السوريين أينما وجدوا ، ولكنها تتغير بالبيئة والوسط وتتجلى في مظاهر شتى !

فهي في سوريا لا تحتاج الى تدليل : تلمسها عند أي شاعر أو أديب تعمد الى آثاره بل وتشهدها واضحة جلية !

أما في مصر فأنت تحسها عند السوريين المستجدين : أقصد حديثي العهد بمصر أو الذين تغلب عليهم طبيعتهم الاصلية وقد تؤثر ملابسة البيئة المصرية فتساعد على عدم ظهورها عند بعضهم الى حد ما .

وفي أميركا تسير النعومة واللين في قالب خيالي يهوى بك الى حيث لا قرار ولا نهاية وربما كان ذلك نتيجة لتفاعل الادب الانجليزي الجاف مع الطبيعة السورية اللينة

وقد يعجب المصريون — والشبان منهم على وجه التخصيص — بأدب جبران وأقرانه لان هذه الطراوة واللباقة والتفكك في ذلك الخيال المتوثب قد تستطرفها الرجولة الخشنة !

وقد يهم القارىء أن يعرف أني أريد ان استثني من هذه القاعدة ثلاثة من أركان النهضة هم : يعقوب صروف ، جورجي زيدان ، خليل مطران .

وهؤلاء أقرب السوريين إلى التخلص من هذه الطراوة التي يناها ويرجع ذلك عند كل منهم إلى أسباب : أما الدكتور صروف فقد كان في مبدأ الأمر — عند مهاجره من سوريا — تتجلى عنده هذه العوامل بشكل بارز يلمسه من يقرأ مجلدات المقتطف الأولى ، ولكن طول مدة إقامته في مصر وتأثره بالقومية المصرية ثم اشتغاله بالمسائل العلمية التي اضطرته الى أن يرجع الى المؤلفات الاجنبية يدرس فيها

الابحاث العلمية الجافة ، كل ذلك ساعد على تخليصه من أسر الليان والطراوة !

ولما أراد جورجي زيدان أن يكتب رواياته المعروفة في التاريخ العربي اضطر أن يلتزم المراجع الأدبية ويتأثر بخفافها وجدها وخشونتها . . ثم ان طول مدة إقامته في مصر واتصاله بالأدباء المصريين كان لهما أكبر الأثر في تركه لهذه الليانة نوعاً

ويمكنك أن تقول عن خليل مطران أنه مصري أكثر من كونه سورياً لانه متأثر بالبيئة والشخصية المصرية أكثر من تأثره بالقومية السورية . ثم إن دراسته لشكسبير وغيره من أدباء الانجليز لها أثر في هجره للطراوة والليان . .

ولكنه لما كان شاعراً ، وكان الشعر يحتاج الى بعض الرقة فهو أكثر من زميليه تأثراً بالطبيعة السورية . ومن ثم يعيب البعض على مطران الركة وضعف الأسلوب ونحن وان كنا لانميل إلى إتهام مطران بهذا إلا أننا نقول انه لايسلم في بعض الاوقات من مخلفات سورية وآثارها في شعره . . ولعله يأنس من نفسه هذا فيجري في نثره أحياناً الاسلوب العربي الفح الجزل !

وإذا كانت مصر الآن هي المثال الذي تحتذيه سوريا وغيرها فقد يكفي هذا للدلالة على أن النهضة المصرية العتيدة تنسخ نهضة سوريا القديمة !

***

والخلاصة : ان البلاد السورية بطبيعتها رافهة ناعمة ، وأهلها قوم وادعون وإن كانوا غالبا ضعاف القومة . . وجاءت الشخصية الفرنسية تناسب المزاج السوري فنفيت فيها قومتهم . وقد أصبح الأدب الفرنسي الآن أفقر الآداب العالمية بعد انصراف رجاله في الأزمنة الأخيرة إلى ناحية واحدة حسب هي الناحية الفيزيكية أي مايتناول نظم الوجدان والغناء . . ولا يخرج محور الأدب الفرنسي الآن عن دائرة العبث والمجون . أما الملاحم الشعرية المجدية . وأما الشعر التهذيبي والشعر الانساني وشعر القصص العالي فيكاد يحتضر في الأدب الفرنسي ، هذا إن لم تقم ثورة فكرية أخرى تغير مرامي هذا العبث وتدعو الى استئناف تشييد الصرح الذي تعب فيه هيجو ورستان واندادهما من أدباء المرامات العالية .

ونعساً للأدب السوري إن ظل مستمسكا بهذا المثل الفرنسي الماجن ولم يبحث عن ملهم آخر أكثر رجولة وأبعد عن الطراوة والليان فلعل هذا الاصلاح المأمول يتم بجهود النابغين من أدباء سوريا الناجين ؟

علي محمد البحراوي